في الرحلة الى الحجاز

قدح الزناد

للانسة عزيزة توفيق

تعالى تهليل القوم وتكبيرهم إذ لاحت معالم جدة من بعيد؛ لقد مضى عليهم يومان وهم لا يرون إلا زرقة السماء والبحر. وعلا الوجوه بشر وصفاء، وابتسم خدم الباخرة في ارتياح، وأخذوا يهنئون الحجاج بسلامة الوصول، مؤكدين أنه سيكون حجا مبرورا؛ فقد كانت آيات الرضا من الله تتجلى في الريح الرخاء التي صاحبت الباخرة طوال اليومين الماضيين.

ووقفت بنا الباخرة على مبعدة من الشاطئ، حيث بدت منازل جدة ومن خلفها الجبال ملتفة بأضواء الشروق أضفتها عليها شمس الصباح، فبدت في حلة أرجوانية

وفي ابتهاج أسرعنا بالنزول إلى الزوارق البخارية التي أخذت تهدهدنا في رفق على صفحة الماء الساجي، حتى لحقت بنا أمتعتنا وسارت الزوارق مسرعة، يقودها حجازيون ذوو بشرة سمراء محمرة، تطل من وجوههم عيون تبرق نشاطاً وتصفو إيماناً. وكانت شرائط المياه البيضاء المتخلفة من انسياب الزوارق على صفحة المياه الزمردية تسرع خلفنا في وشوشة موسيقية رتيبة، وأحيانا يعلو عليها صوت الحجاج «لبيك اللهم لبيك». ووصلنا جدة!!

إذ ذاك طالعتنا لوحة فنية رائعة؛ تمثل مختلف الشعوب الإسلامية، لقد كانت لوحة حية Tableau vivant لمختلف الوجوه والأشكال؛ على رغم أن الجميع كانوا يلابس الإحرام. وراقنا من بين الجمع غلام يافع، يتدلى شعر رأسه الأسود في خصلات لامعة معدلة على كتفيه، وقد علت تلك الخصلات قلنسوة «طاقية» مطرزة بألوان زاهية أكسبت لونه الحري بهاء.

أخذ هذا الغلام يجمع جوازات السفر ليؤشر عليها من المختصين، ومن ثم قادنا إلى حيث أقلتنا سيارات إلى مدينة جدة

وجدنا جدة ثغرا جميلا، ذا مبان فخمة تضاهي طراز البيوت في أية بلد متمدن. وبها منتدى «كازينو» يسميه الوطنيون «الثلاجة» ويديره جماعة من الحجازيين بملابسهم الوطنية، وهي عبارة عن مئزر مبرقش بجممه حزام، أو جلباب واسع مشدود من الوسط بمنطقة من القماش، ويغطي رءوسهم «لاسة» ينساب أحد طرفيها على قفاهم لتحميها وهج الشمس، ويسمى عندهم «العذبة». وكم كان لطعم المرطب «ابيلاتي» الذي قدم لنا هناك لذة أية لذة؛ وعلى الأخص حينما كنا نسرح الطرف آماداً بعيدة جوالا على تماريج الأمواج الزاخرة، ثم يرتد إلى محيط النادي ذي الغرابة والسحر

قضينا بجدة يوما ممتعا. وفي اليوم التالي وافتنا السيارات لتقلنا إلى مكة، فسارت بنا في طريق وعر، تحف بها من جانبيها جبال شاهقة وهضاب مرتفعة؛ قد اختلفت مادة ولوناً. وها نحن نرتقم إلى أعلى وقد اهتزت بنا السيارة مجتازة أحد المنتوء في الطريق، ثم نهبط تبعاً لانحدارها المفاجئ. ثم إذا بها تدور فنميل حتى تتلامس الرءوس، وقد انهلعت قلوبنا فرقا

وأخيراً تعود السيارة سيرتها المستقيمة، ويطمئن على خوفنا اطمئنان يزجيه الإيمان

حتى بلغنا مكة. وكانت هذه أولى قدحات زناد إيماننا.

إن أي عالم نفساني لا يستطيع أن يدرك مدى تلك السعادة الروحية التي شعرنا بها ونحن نمر بأبواب الحرم الشريف في طريقنا إلى منزل «المطوف» الذي ما كدنا ندخله حتى دعا الداعي إلى «طواف القدوم»، فأسرعنا كأطفال في يوم عيد تطفح وجوهنا بشرا، لمحته أنا في كل وجه حتى في وجوه الشيوخ منا. وسرنا وراء «المدعي» نردد تلبياته وابتهالاته واستغفاراته، بصوت خاشع منيب، فيه رنة تنفذ إلى القلوب في رهبة، وتحفز الأرواح لتلهج بها الألسنة مرددة هذا الاستغفار والابتهال: «يارب لقد جئتك من بلاد بعيدة، بذنوب كثيرة ارحمتك يارب!

غفرانك يارب ! » وكان « الدعى » بمد الباء الأخيرة فى « يارب » فتصل إلى غور عميق من النفس

ودخلنا من « باب السلام » إلى بيت الله الحرام ، ووقفنا تجاه الكعبة قانتين . ودعونا الله أن يزيد بيته الحرام تشريفاً وتكريما ، وأن يغفر لنا ما تقدم من ذنبنا وما تأخر ، ثم دعونا بما نريد من مطالب الدنيا ؛ إذ قيل لنا : إن الله يستجيب ما يطلبه المرء فى هذا المكان . وإذا بى لا أجدنى طالبة من الله إلا أن يسهل لى الطواف ولمس الحجر الأسعد « الأسود »

وإذ نوينا الطواف أسرعنا وسط الجموع الزاخرة ، يدفعنا الموج الآدمى من مختلف الشعوب والأمم . يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ، كل مشغول بنفسه ؛ كأنهم فى يوم الحشر بين يدى الديان

تطلعت إليهم وأنا أجرى بجرفى تيارهم ، وهم كتل متراصة متماسكة ، كل منها تردد الدعاء خلف مطوفها ، كل بلغته ولسانه . وحينئذ خيل إلى أن أمنيتى لن يكون لها نصيب من التحقيق . ومررت « بالركن اليمانى » وأمكننى أن ألمسه مقبلة ، وما وافيت الحجر الأسعد حتى رأيت الجموع المزدحمة عليه فى تهافت وتلهف قد انشقت مفسحة أمامى طريقاً أفضى بى إلى الحجر بين ذهول هذه الجموع الذى لم يدم إلا لحظة تمكنت فيها من لمس الحجر وتقبيله . وخرجت من الازدحام لأتم دورات الطواف السبع ، وحين وصلت إلى ركن « إبراهيم » ووقفت لأصلى ركعتين هما سنة الطواف رفعت طرفى إلى السماء ، وقد شاع فى كل كيانى بسمات من السعادة ! تبارك الله جلت قدرته ؛ فلقد حققت أمنيتى وسعدت بلمس الحجر . وحين كنت أؤدى ركعتين فى « حجر إسماعيل » رحت أتمنى ما شئت من نعيم الدنيا والآخرة ، وكلى ثقة وإيمان بأن الله جلت قدرته سيحققها بإذنه إن شاء . وجلست لأستريح بالحرم وأجلت البصر فيما حوالى

الكلام صلة .

عزيزة توفيق
الدراسات العالية — القسم الفرعونى
كلية الآداب

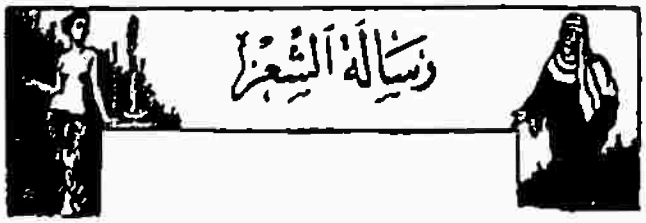

شكاة شاعر

(مرفوعة إلى عميد الأدب العربى ، ووزير المعارف المصرية ، الدكتور طه حسين باشا)

للاستاذ إبراهيم محمد نجا

إليك ، وبى يأس أضاع شبابيا ... توجهت أبغى أن تعيد رجائيا
وأنت الذى يرجى لكل عظيمة ... إذا لم أجد فرداً على الخير ساعيا
وحسبى فخارا أننا من أرومة ... موحدة طالت ذرا النجم راقيا
كلانا نماه الأزهر السمح للعلى ... وهاأنت جاوزت الكواكب سامیا
وهانذا أسعى إليك مجاهداً ... فأدرك جهادى ، واستجب لندائيا
خلقت بروحى طائراً مترنما ... يحلق فى الآفاق يبغى الأعاليا
إذا ماتغنى أنصت الكون خاشعا ... وأصغت له الأيام ركباً وحاديا
سكبت أفاريدى على كل روضة ... وفى كل أفق قد بعثت الأغانيا
فما بال قومى كبلتنى قيودهم ... فعشت أسيرا موجع القلب باكيا
عفا الله عن قومى ! يريدون شقوتى ... كأنهمو يستعذبون شقائيا !
إذا لم أعش فى جنة فوق ربوة ... فكيف أغنى هادئ النفس راضيا ؟
شكوت ولم أفصح ، وحسبى إشارة ... إذا جئت أبدى للبيب شكاتيا
عهدتك ترعانى ، وترعى مواهبى ... فلا زلت مرعيا ، ولا زلت راعيا
وبلغت أقصى ما تريد من المنى ... وأنت جدير أن تنال الأمانيا
• إنى جدير أن أظل على المدى ... مقيما على عهد المودة وافيا

إبراهيم محمد نجا

إلى النيل الخالد

الاستاذ حسن عبد الله القرشى

صوت العروبة فى هديرك مرزم ... وعلى ضفافك شعلة تتضرم !
يا راكضاً كالدهر مطلق المدى ... تفتر للنعمى ومنك الأنعم
تجرى السفائن فيك وهى موائس ... وتعب منك وأنت زاه تبسم !